ذلك الضلال البعيد، ولكن الرسالات الإلٰهية مكافحة لكل ضلال قريب أم بعيد إذ تملك بياناً للحق الصارم، ناصحاً ناصعاً لا يشوبه ريب ولا عيب:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾:

أترى ما هو «لسان قومه»؟ هل هو لغتهم التي بها يتكلمون[١]؟ وأولو العزم من الرسل أرسلوا إلى العلمين بمختلف لغاتهم، مهما كان الموارد الأولى لدعواته قوم واحدهم عائشوهم، ولكنهم كبداية الدعوة، ثم منطلقها إلى سائر المكلفين، وهم جميعاً قومهم المرسل إليهم!

أم «قومه» هم قوم هذا الرسول ﷺ فما أرسل من رسول إلا بلسانهم العربي وهم كانوا يترجمونها إلى لغات أقوامهم[٢]؟ ولم يسبق للرسول ذكر حتى يرجع إليه ضمير ﴿قَوۡمِهِۦ﴾! وحتى لو ذكر فلماذا ﴿بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ دون «لسانه» وهو أعرب العرب! ثم ولا تمت ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ بصلة إلى اللغة العربية حيث البيان لا يتحصر فيها.

أم ﴿قَوۡمِهِۦ﴾ هم قوم كلّ رسول، في رسالة خاصة كالرسل الفروع، أم عامة كأولي العزم من الرسل ولكن ﴿قَوۡمِهِۦ﴾ في هؤلاء هم الذين نشأ فيهم دون سائر العالمين مهما كانوا قومه في البُعد الرسالي!

---

(١) الدر المنثور ٤: ٧٠ وأخرج أحمد عن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ لم يبعث الله نبياً إلا بلغة قومه.

(٢) نور الثقلين ٢: ٥٢٥ ح٤ عن الباقر عليه السلام قال: ما أنزل الله تبارك وتعالى كتاباً ولا وحياً إلا بالعربية فكان يقع في مسامع الأنبياء عليهم السلام بألسنة قومهم وكان يقع في مسامع نبينا بالعربية فإذا كلم به قومه كلمهم بالعربية فبقع في مسامعهم بلسانهم وكان أحد لا يخاطب رسول الله ﷺ بأي لسان خاطبه إلا وقع في مسامعه بالعربية كل ذلك يترجم جبرائيل عليه السلام عنه تشريعاً من الله عزوجل له ﷺ.

فموسى يُرسَل بلغة قومه الإسرائيليين: العبرانية، ثم ويدعم مَن سواهم من قبط الفرعونية وسائر المكلفين بمختلف لغاتهم، ومحمد ﷺ يرسل بلغة قومه العرب وهو يدعو قومه الرسالي وهم كافة المكلفين.

ولوط يرسل بلسان قومه من كلدة وهم سريانيون، ثم يرسل إلى المؤتفكات العبرانيين.

ذلك، ولكن ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ لا تناسب لغة القوم الأول لكل رسولٍ، حيث البيان الرسالي لا تخص من نشأ فيهم الرسول، فكل المرسل إليهم أياً كانت لغتهم وفي أي زمان أو مكان، يستحقون ذلك البيان، فهم كلهم قومه، مهما قام عم قوم خصوص لهم لغتهم وعاداتهم!

ثم و ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ باتلقرآن، ليست لتعني إلا إخراجاً ببيان القرآن، وهو عربياً ليس إلا بياناً للعرب دون سائر العالمين!

﴿بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ قد لا تعني لغة قومه مهما شملت لغتهم، وإنما هو البيان الذي يفهمون، سواء أكان بلغتهم أم ترجمة لها إليها، فإنما المعنى المستفاد منها هو الواضح المبين، الساذج الناضح المناسب لافهامهم.

فقد تكون الرسالة بلغتهم ولكنها مغلقة غير مفهومة، تعبيراً أم معبراً عنه، حيث لا توافق حاجياتهم مهما فهموها، أم توافق ولكنهم ليسوا ليفهموها، فهذه الرسالة هي بلغتهم وليست بلسانهم.

وأما الرسالة بلسانهم، فهي المفهومة لديهم وإن بوسيط الترجمان، المقبولة لديهم حيث يناسب حاجاتهم، وكما نرى في هذه الرسالة السامية ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾[1] ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[2] فالتبشير والإنذار والتذكار ليست على

(١) سورة مريم، الآية: ٩٧.
(٢) سورة الدخان، الآية: ٥٨.

أساس اللغة في متهافت حالاتها ودلالاتها، وانما هو «لسانك»: لسان القرآن: عربي مبين، بلسان نبي القرآن، لسان ميسّر تذكاراً وتبشيراً وإنذاراً لمن يتحرى عن الهدى، ولا يتردى في الهوى.

فقد نزل القرآن بلسان قوم الرسول الخاتم، وهم مختلف الأقوام بمختلف اللغات والافهام في طول الزمان وعرض المكان، فكل من يبلغه القرآن ببيان نبي القرآن يتذكر به وينذر ويبشّر، إلّا من استحب الحياة الدنيا على الآخرة فاستحب الكفر على الإيمان واتبع هواه وكان أمره فرطاً ﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾.

فليس لسان هذه الرسالة أن يخاطب كل قوم بلغتهم، وإنما بلسانهم الذي يفهمون، إن عربياً فبنفسه، وإن أعجمياً فبترجمته أو ترجمانه، ثم وعلى كافة المرسل إليهم أن يتعلموا لغة القرآن، لكيلا يحيدوا عما يحويه، في ترجمة زائفة أم ترجمان زائغ، مهما كان التقليد للأورع الأعلم فيه الكفاية لمن لم يتعلم، أم تعلم اللغة ولم يمعن في معانيها ومطاويها. ولأن ﴿قَوْمِهِۦ﴾ أخص من «أمته» فقد يعني المحطّة الأولى لدعوة كل رسول، وهو بطبيعة الحال قومه الذين نشأ منهم ونما فيهم، ﴿بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ ثم هم يحملون ما بيّن لهم لسواهم بنفس اللغة لأهلها، وترجمة لها لسواهم، فالبيان - إذاً - عام موقفه الأوّل قوم كل رسول.

ثم وليس من المفروض أن يدعو الرسول كل المرسل إليهم بنفسه، فإنها دعوة مستحيلة، ولا سيما بعد ارتحاله إلى رحمة ربه[1].

(١) نور الثقلين ٢: ٥٢٥ ح ٥ عن عبد الله بن بكير الرجائي قال: قال الصادق جعفر بن محمد عليه السلام اخبرني عن الرسول صلى الله عليه وآله كان عاماً للناس أليس قد قال الله في محكم كتابه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨] لأهل الشرق والغرب وأهل السماء والأرض من الجن والإنس هل بلغ رسالته إليهم كلهم؟ قلت: لا أدري، قال عليه السلام: يا ابن بكير إن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يخرج من المدينة فكيف بلغ أهل الشرق والغرب؟ قلت: لا أدري، =

ومن ثم فعلى حملة رسالته من خلفائه المعصومين وسائر الفقهاء في الدين أن يحملوها على ضوء القرآن والسنة إلى كافة الأرجاء والأصقاع، إذا فلا تعارض بين رسالته للعالمين، ورسالته بلسان قومه في تقدير الله وواقع الحياة الرسالية.

﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ عن أية رسالة في زمنها ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ فمن شاء ضلاله شاء الله ومن شاء هداه شاءه الله، فـ ﴿مَن يَشَآءُ﴾ تعم المشيئتين حيث الخلقية منها تتبنى الخالقية ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1] و﴿مَن يَشَآءُ﴾ هنا تعم المشيئتين البشرية والإلهية، فمن يشاء الضلال شاءه الله، ومن يشاء الهدى شاءها الله، والمشيئة البادية الإلهية هي الهادية، حيث أرسل رسله لها، وقدم مقدمات صالحة للسالكين فيها.

ثم هو يتبع مشيئات المكلفين تخييراً دون تسيير ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾[2].

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ في إرساله رسله ومشيئته لإضلال من ضل وهدى من اهتدى، فإنها ليست بعزة دون حكمة، ان يرسل دون حكمة، أو يضل ويهدي دون حكمة.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ۝٥﴾:

= قال عليه السلام: إن الله تبارك وتعالى أمر جبرئيل فاقتلع الأرض بريشة من جناحه ونصبها لمحمد صلى الله عليه وآله وكانت بين يديه مثل راحته في كفه ينظر الى أهل المشرق والمغرب ويخاطب كل قوم بألسنتهم ويدعوهم إلى الله وإلى نبوته بنفسه فما بقيت قرية ولا مدينة إلا دعاهم النبي صلى الله عليه وآله بنفسه أقول، وهذا بيان لواقع الدعوة الواسعة في هذه الرسالة لا أن الرسول بالفعل دعى المرسل إليهم كلهم، اللهم إلّا بما يحمله حملته إلى الناس كافة.

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

أترى ما هي أيام الله؟ والأيام كلها لله! انها الأيام التي يبرز فيها حكم الله إذ لا حكم فيها إلا لله، سواء فيها أيام الفرح والترح، وهما قبل الموت أم بعده، فمما بعده يوم البرزخ ويوم القيامة وكما تعنيهما فيما تعنيه آية الجاثية: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[١].

ومما قبله يوم الرجعة وهذه الثلاثة[٢] هي الأيام الرئيسية من أيام الله، ومن ثم أيام الرحمة والعذاب التي يبرزان فيها انهما من الله دون سواه، فهما «نعماءه وبلائه ببلائه سبحانه»[٣].

فمن أيام العذاب يوم عاد وثمود وقوم نوح واصحاب الرس ويوم فرعون والمؤتفكات والذين من بعدهم، كما ومن أيام الرحمة يوم نوح بسفينته ويوم إبراهيم بناره ويوم موسى بتابوته في يمه ويوم عيسى إذ شبه به عدوه ويوم محمد في ليلة المبيت والغار وأيام أخرى تترى تلو بعض للصالحين من عباد الله الظاهرة فيها رحمة الله كما ظهرت هنالك نقمته للطالحين.

فهنالك التذكير بأيام نقم الله التي أوقعها بالماضين، والأيام التي أنعم الله عليهم فيها وعلى الماضين بوقم الأعداء وكشف اللأواء، وإسباغ النعماء، فالأيام إذا تذكر لمن أراد أن يتذكر وظن نشوراً.

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ١٤.

(٢) نور الثقلين ٢: ٥٢٦ عن الخصال عن مثنى الحناط قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: أيام الله يوم يقوم القائم ويوم الكرة ويوم القيامة، وروى القمي في تفسيره قال: أيام الله ثلاثة: يوم القائم ويوم الموت ويوم القيامة.

(٣) المصدر عن أمالي الطوسي بإسناده إلى أبي جعفر عليه السلام قال حدثني عبد الله بن عباس وجابر بن عبد الله الأنصاري أن النبي صلى الله عليه وآله قال في قوله عز وجل: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِ...﴾ [إبراهيم: ٥] أيام الله. وعن العياشي بسنده عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: بآلاء الله يعني بنعمته.

ولخاصة بني إسرائيل أيام النعم والنقم من بأسهم بفرعون وسوء عمله، وبأس فرعون في غرقه بسوء عمله، المسرودة كاملة في الذكر الحكيم.

فذلك التذكير لقوم موسى يعم الإنذار والتبشير وكما لكل قوم يعيشون أفراحاً وأتراحاً ملموساً لهم أم في التاريخ.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ صبراً على نعمته فلا يزهو وعلى نقمته فلا يشكو.

وترى كيف يتقيد ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ في محمد ﷺ ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ ولكن ﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ في موسى لا يتقيد بإذن؟ علّه لأن الأمر في أخرج شامل إذنه حيث يشمل إخراجه كرسول أمراً شرعياً، وإخراجه كذريعة أمراً تكوينياً، ولأن ضرورة الإذن في محمد ﷺ لزامها الاولى الإذن في موسى عليه السلام، أم انه يخص الإخراج دلالياً وتكوينياً.

وهنا نرى موسى يذكرهم بأيام النعم والنقم كما أمره الله، ولأنهم كانوا أشداء في إخلادهم إلى الدنيا لا يذكرهم إلّا بأيامها دون الأخرى.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ
ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ
نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ
رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾
وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ
﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ
وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۖ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ
فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى
شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ
أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا
كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن
نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا
كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ
وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ
إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ

لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾

هذه الآيات تحمل من ذكرى موسى بأيام الله طرفاً نموذجياً هاماً من أفراح وأتراح، ففي إنجائهم من آل فرعون مجمع اليومين، يوم نعمة بارزة لقوم موسى ونقمة لآل فرعون، يوماً حاضراً لهم يحملهما في عملية واحدة خارقة من الله، ثم تذكيراً بأيام غابرة عابرة مرّ التاريخ، ومن ثم أيام القيامة ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ ثم جمعاً للذين كفروا عبر التاريخ في مثلث الزمان ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾!.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾:

﴿إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ تعطف إلى غرقهم دونهم وهو من ذكرى أيام الله في نعمة الله عليكم ونقمته على آل فرعون و﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ هم الفرعونيون، نفسه كأصل وأتباعه كهوامشه، والجمل الثلاث ﴿يَسُومُونَكُمْ... وَيُذَبِّحُونَ... وَيَسْتَحْيُونَ﴾ أحوال ثلاث لآل فرعون في فعلتهم بهم طوال عشرتهم في سلطتهم الجبارة.

والسّوم في الأصل ذهاب في ابتغاء شيء، وآل فرعون كانوا يذهبون مذاهبهم في ابتغاء بني إسرائيل بغياً بكل صنوفه ومن أهمه تذبيح الأبناء واستحياء النساء لحد كأنهما هما سوء العذاب دون غير هما من عذاب وكما في البقرة والأعراف: «يسومونكم سوء العذاب يذبحون - يقتلون - أبناءكم ويستحيون نساءكم» (٤٩ و١٤١) حيث يذكر أن ردفاً بسوم العذاب دون عطف.

ثم وليس البلاء العظيم هنا - فقط - سوم العذاب وهو بلاء الشر، بل والإنجاء من آل فرعون وهو بلاء الخير وهما في نجدي الخير والشر بلاء عظيم: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[1].

وترى ذلك بلاء الخير ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ حيث أغرق آل فرعون، فأين بلاءهم الشر: ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ من ساحة الرب؟ نقول: كل بلاء خيراً أو شراً هو من الله، فلو أن الله سدّ آل فرعون عن سوم العذاب فصد عن بني إسرائيل سوم العذاب كما أغرق آل فرعون، لم يكن عليهم بلاء الشر والدنيا دار بلاء وابتلاء بخيرها وشرها ونفعها وضرها!.

فهنالك بلاء لامتحان الصبر دون امتهان الذل والتخاذل، أو احتمال العذاب بتضعضع وهزيمة روحية، وانما استعداداً للوقوف في وجه الظلم والطغيان، وتصبراً في الحفاظ على الإيمان والصمود في وجه الطغيان دون تلكع وتخضع.

ومن ثم بلاء بالنعمة والرخاء لامتحان الشكر بعدما مستهم الضراء، وما بلاء النعمة بأهون من بلاء النقمة، بل وذلك أقوى، فإنه أزل وأهوى، حيث الزهوة والرعونة تأخذان من أهل النعماء مآخذهما الجبار: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.

نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾[1].

ف «تدبروا احوال الماضين من المؤمنين قبلكم كيف كانوا في حال التمحيص والبلاء؟! لم يكونوا أثقل الخلائق أعباء وأجهد العباد بلاء وأضيق أهل الدنيا حالاً؟ اتخذتهم الفراعنة عبيداً فساموهم سوء العذاب وجرعوهم المرار فلم تبرح الحال بهم في ذل الهلكة وقهر الغلبة لا يجدون حيلة في امتناع ولا سبيلاً إلى دفاع حتى إذا رأى الله جد الصبر منهم على الأذى في محبته والاحتمال للمكروه من خوفه جعل لهم من مضائق البلاء فرجاً فأبدلهم العز مكان الذل والأمن مكان الخوف فصاروا ملوكاً حكاماً وأئمة اعلاما وبلغت الكرامة من الله لهم ما لم تذهب الآمال إليه بهم...»[2].

ثم وتذبيح الأبناء وتقتيلهم هو من أسوم سوء العذاب وأسأمه، فما هو دور استحياء النساء من سوم العذاب! وهنالك استحياء الرجال كما النساء حيث التذبيح يخص الأبناء، وليس الإبقاء على حياة عذاباً فضلاً عن سوم العذاب؟.

إن استحياء النساء لا يعني - فقط - استبقاءهن أحياء، بل واستخدامهن في محنة المهنة ومهانتها اثقالاً عليهن بكل أثقال الأعمال بيتية وخارج البيتية، ثم وإزالة حيائهن بممارسة الجنس، حيث الاستحياء تشمل إيجاب: الإبقاء على حياة، وسلب الإزالة للحياء، ثم وفي استحياء الحياة لمن يقتل ابنها دون إبقاء حياة مزعجة مفلجة، فأحلى للحامل أن تقتل مع حملها ولا تقبل حملها بعد حملها، أفلا يستوجب ذلك البلاء الحسن بعد سيئه شكراً

(١) سورة هود، الآيتان: ١٠، ١١.
(٢) قسم من الخطبة القاصعة عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.